٣ - في بلاد الأحرار

للكاتب التركي الأستاذ أغا أغلو أحمد

للأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

الحرية وردة

عاد إلى الأساتذة بعد يومين وسألني أحدهم فقال :

— هل قرأت الدستور ؟ أحفظته استظهارا ؟

— قرأته وحفظته.. غير أني أرجو منكم شرح بعض مواده لتيسر فهمها علي . . هل لكم أن توضحوا لي قبل كل شيء الحكمة العامة لهذا الدستور ؟ لماذا وضع ؟ ولأية غاية أحدث ؟

— بكل سرور .. يجب أن تعلم أن الحرية مسألة ثقافة وتهذيب ليس إلا

— لم أفهم أيها الأستاذ ، ألا تتفضلون بشرح أوفى ؟

— حسنا .. هل سبق لك أن اشتغلت في أعمال الحدائق ؟

— نعم !

— إذن سهل الإيضاح . لابد من أنك قد لاحظت في خلال تعهدك الحديقة أن شجرة ، أو وردة ، أوزهرة ، أيا كانت لا يمكن أن تنبت وتنمو وتترعرع إلا إذا توفرت لها الشروط التي تتطلبها طبيعة الشجر أو الورد أو الزهر .. وعليك أن تعلم الآن أن الحرية كالوردة أو الزهرة .. سواء بسواء . . فنموها وازدهارها يستلزمان توفر شروط تلائم طبيعتها وخصائصها الذاتية . .

— وما هذه الشروط ؟

— هل استظهرت نشيد البلاد ؟

— نعم !

— لقد جاء في ذلك النشيد .. « أن الحرية جوهر الشعور ، وأن الشعور هو الإنسان » فلذا يجب الاعتناء الكافي بالإنسان عند « تعليم » هذا الجوهر لكيما يؤتي ثماره البتناة ..

أما البيئات التي مرت عليها الأحقاب الطويلة وهي ترسف في قيود الذل والاستعباد ، وضاعت عنها معالم الكيان الحر ، فليس تطعيمها بإكسير الحرية من الأمور السهلة الميسورة ، كما يتراءى لأول وهلة .. وذلك أن الاستبداد لا يتخذ لنفسه موطنا من الإنسان إلا الروح والقلب فحسب . . فهناك يبذر بذوره ويتأصل ، وهنالك يؤسس عرشه ويضع على رأسه تاجه المروع

وقد يخيل إليكم في بعض الأوقات أن الاستبداد قد تهدم صرحه ، وتقوضت دعائم بنيانه ، وقضي على آثاره ومعالمه ، ويساعدكم على اصطناع هذا الظن زوال ظواهره وعلاماته ، بينما الحقيقة ، لو تأملتم مليا ، أنه ما يزال حيا في كل جانب ، مضطرما هواه في كل فرد

وعلى سبيل المثال أقول : إنكم تجدون أناسا يطالبون بالحرية بأعلى أصواتهم ويتحمسون لها غاية الحماسة ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يحترمون حرية الجار مثلا . . فعند أول اصطدامهم بهذه الحرية تجدهم يرغون ويزبدون ، ويودون لو أتيح لهم سحق الشخص الذي أمامهم سحقا تاما ، والقضاء عليه بأي وسيلة

وذلك لأن عرش الطغيان لم يهدم ، وروح الاستبداد لم تقتلع ولم تنبذ بعد من الأرواح والقلوب

وهذا هو السبب أيضا في أن الحرية في مثل هذه الأحوال قد تنقلب إلى فوضى ماحقة ، لا تبقي ولا تذر ، ذلك أن الاستبداد التجمع سابقا في الفرد الواحد ، يأخذ في هذه المرة طريقه إلى الظهور عند كل فرد على حدة ، بملامحه البارزة المستديمة ، فيتعاظم أثره في النفوس على التدريج ، ويشرع البعض في استمراء التحكم والعبث بحقوق البعض الآخر باسم الحرية ذاتها . . غير أنه قبل أن يمكن استمرار هذه الحال طويلا تظهر الحاجة ثانية إلى كتم أنفاس الكل ، وإلى قبوع كل واحد في جلده باسم الحرية ذاتها من جديد ..

وهكذا تضطر البيئات التي لم تستأصل بعد جذور الاستبداد المعنوية من دواخلها ، ولم تقض على آثارها في نفوس ظهرانيها إلى التقلب على الدوام بين عهدين من الفوضى وفقدان الحرية ، الأمر الذي يعد بلادة مجهولة العواقب لهذا المجتمع بطبيعة الحال

لهذا فإن دستور بلاد الأحرار قد وضع لإرشاد مجتمع كهذا إلى الطرق المثلى التي يصون بها نفسه عن الوقوع في مهاوي

مردية كهذه ، حيث فيها القضاء الأخير على البقية الباقية من حيائه وكيانه أمر محتوم أكيد

أما مايهدف إليه هذا الدستور فهو القضاء على روح الاستبداد فى النفوس ، وهدم عرشه وتاجه فى القلوب ، وإقامة عرش وتاج الحرية عوضا منهما

— لقد فهمت أيها الأستاذ . واطلعت على قيمة الدستور الحقيقية ، فهل تسمحون بأن ننتقل إلى نصوص المواد ذاتها الآن

* * *

تنص فاتحة مواد الدستور على تهجين الكذب وتحريمه . . فهل يعنى ذلك أن لهذه الجريمة أهمية خاصة بها ؟

— نعم !

— لماذا ؟ وهل يستطيع إنسان أن لا يكذب إطلاقاً ؟

— الرجل الحر لايكذب أبداً . والكذب شعار الضعاف الأذلاء الجبناء ... فى حين أن تتطلب أن يكون الإنسان قوياً ، شجاعا ، ذا عزيمة ماضية . . ثم إن الكذب وسيلة لإخفاء الحقيقة وسترها ، وحيث تختفى الحقيقة ، تكون السيادة للباطل وحده . . ولاخير فى موضع يسوده الباطل ويحكمه . . إن المجتمع الذى يعرف قدر نفسه لن يسمح بذلك بحال من الأحوال ، وهذا هو السبب فى أن بلاد الأحرار تهتم اهتماماً خاصا بهذه الجريمة

— لقد فهمت أيها الأستاذ! واستنارت فى نظرى الآن جوانب كثيرة من الماضى الغابر . . ولكن كيف يمكن القضاء على شائبة الكذب فى أرجاء مجتمع كبير ؟

— هذه مسألة تربية وتهذيب ليس إلا . . تبدأ فى الأسرة والمدرسة وتنتهى فى المجتمع . . ذلك أن الأسرة والمدرسة هما وحدهما اللتان تضمان الأساس الروحى الأول للأطفال . . وأن الطفل ليس إلا مخلوقا يقوم بتأثر أمه وأبيه ومعلميه ومحاكاتهم فحسب . . ثم لاتنس أيضا أن الطفل الذى ينشئه أب وأم ومعلم كاذبون لا يسعه إلا أن يكون كاذباً . . لهذا وجب على كل من الأب والأم والمعلم أن يبذلوا أقصى ماعندهم من جهد للحيلولة بين الطفل والكذب على الدوام وليس ثمة وسيلة أبعد أثراً وأضمن لتحقيق النتائج المرجوة من اجتناب هؤلاء أنفسهم الكذب قبل كل شىء

أجل ! على هؤلاء أن لا يسمحوا للأطفال بأن يلجأوا إلى الكذب أبداً ، كما عليهم أن لا يقروا أى نوع من أنواعه مهما بدا فى مظهره تافهاً بريئاً

وموجز القول يجب أن يكون الطفل عند مغادرته الأسرة والمدرسة وانتقاله إلى المجتمع مقتنعاً فى أعماق نفسه اقتناعاً تاما بأن الكذب إن هو إلا داء قذر مرذول يجب تحاشيه والابتعاد عنه بأى ثمن

أما المجتمع ذاته فهو أيضاً ، لو أعد من جانبه الوسائل اللازمة لتأييد هذه الجهود الأولية ، وعبئت قواته النشيطة لدعمها بغير تراخ (كأن تطرد الكذابين مثلا من حظيرته كما هى الحال فى بلاد الأحرار) لاختفى الكذب بلا مراء من أوساطه ، ولذهب أثره بدداً من نفوس ظهرانيه إلى غير رجعة

ولكن المجتمع الذى ينتهج غير هذه الخطة ، فيعتبر البراعة فى الكذب عبقرية ونبوغا ، وينظر إلى النجاح الذى عماده التدليس نظرة الإعجاب والإكبار ، ويحترم الرجال الذين تحقق لديه كذبهم ونفاقهم ، أجل ! إن مجتمعاً كهذا ليضطر اضطراراً إلى الإذعان لكل مايورثه إياه داء الكذب من الذل والهوان ، ويجلبه له من الكوارث والنكبات

فى مجتمع كهذا لا يثق إنسان بإنسان ولا يعول البعض على الآخر كما لا يبقى أى مجال للمشاركة فى أى عمل يقوم على أساس سليم ، أو تنفيذ أية خطة بطريقة اشتراكية ناجحة . . وهكذا ينعدم الأمل فى ضمان أى نوع من الرقى والازدهار ، فيتردى المجتمع شيئا فشيئا ، ويأخذ طريقه إلى الهاوية والاضمحلال

— آه أيها الأستاذ ! إننى كنت أيضاً أشاهد هذه الحالات منذ مدة بعيدة . . ولكننى لم أفهم عللها ودواعيها إلا فى هذه اللحظة . . والآن هل لكم أن تتفضلوا بشرح حكمة المادة الثالثة ؟

— حبا وكرامة !

— تقضى هذه المادة بفرض عقوبه قاسية كالرجم بالأحجار على مرتكبى جريمة الرياء والتملق . . وفى الحق أننى لم أفهم الباعث على استعمال مثل هذه القسوة الشديدة وهذا العنف الزائد ، ألا يسوغ امتداح ذوى المراكز العالية ، والقابضين على صولجان الحكم ، والإشادة بمآثرهم ؟

أليس لكل هذه القصائد الرنانة التى تملأ رحاب الأدب

أى قيمة ؟

ثم هناك مسألة أخرى ، وهى أن جميع منابع السعادة ، ومصادر النعيم موضوعة تحت تصرف هؤلاء ، ذوى القوة والسلطان ! بل وكثيراً ما يتوقف المصير وميزان الحظ على نظرة واحدة يرسلها أحد هؤلاء عفوا ومن دون قصد

ألا يجوز فى مثل هذه الحالة أن يتملقهم المرء ويأتى بما ترتاح إليه عنجهيتهم وعجرفتهم ؟

— يلوح لى أن نظم هذه البلاد تبدو غريبة لمن كانوا على شاكلتك ممن ألفوا الخنوع ، وترعرع فى أحضان الاستبداد ولكن قل لى بربك هل وطنت النفس حقيقة على أن تكون حرا طليقا ؟

— نعم !

— إذن عليك أن تقوم بتغيير ماينفسك تمام التغيير . . لأن كل ماذكرته الآن إنما يعود عهده الى الزمن الذى كنت تقاسى فيه مرارة العبودية ، وتعانى أوصاب الأسر . . ومادمت قد حطمت سلاسلك وقيودك وعزمت على أن تكون حرا كريما فلا مفر من أن تعلم أن المداهنة إنما هى عمل العبيد والأسرى ، كما هى دليل أيضاً على ضعة الروح وهوان النفس ، وإن الرجل المتملق يكون دائما فاقداً لشرفه وكرامته

إن رجلا كهذا يفسد حتى أخلاق من يتحدث اليه ويتملقه ويتمرغ فى تراب حذائه إذ يوقظ فى نفسه شهوات سيئة كالغرور والعجرفة وعدم تحمل الحق والحقيقة

ومن الأمراض الوبيلة التى ابتليت بها الجماعات الشرقية ، حتى لتكاد تجهز الآن على البقية الباقية من حياتها ، داء المداهنة والتملق بصفة خاصة . . وليس ثمة مايدانى هذا الداء فى نتائجه الروعة وإمعانه فى التهديم

فهو ينفذ من الانسان فى خلايا الدماغ وشغاف القلب ويتسرب كسموم الثعابين القاتلة بينها فيوهن الجسم ويبليه ويشله شللا تاما

إن الشعراء الشرقيين الذين دبجوا القصائد الطوال فى المديح والثناء كانوا — بغير علم ولا هدى — من أكبر الجانين على أمتهم ووطنهم . . وبنسبة روعة القصيدة كان الدمار المعنوى مروعا مخيفاً فضلا عن التخريب الذى احدثه المقلدون والناسجون على منوال الأوائل

ووجه الغرابة فى الأمر أن هناك كثيرا من المجتمعات التى تنشد الحرية وتتوق الى تحقيقها لنفسها تفرض أمثال هذه القصائد نماذج أدبية على مدارسها ومعاهدها

ليت شعرى . . أيقدر هؤلاء عظم الجرم الذى يجنونه ، وضخامة الجناية التى يقترفونها ؟ أم ترى أنهم لا يعرفون مدى التأثير الذى يحدثه الشعر والموسيقى فى القلوب الغضة والأدمغة الناشئة ؟

ولكن مهما يكن من شئ فإن عمل الأمة الطامحة إلى الحرية لا يقل شأناً فى هذا الخصوص عن عمل الفلاح الذى يبذر فى حقله البذور ثم يذر فوقه الكبريت

لقد حرم القانون الإنكليزى منذ القرن الخامس عشر مدح الملك ، كما حرم ذمه ايضاً

وهكذا تكون خطة الأمة الراغبة فى الحرية

الكلام بقية

أحمد مصطفى الخطيب

جامعة فؤاد الأول إعلان

معهد الوثائق والمكتبات

يقبل معهد الوثائق والمكتبات بجامعة فؤاد الأول الطلاب الحاصلين على شهادة التوجيهية أو شهادة البكالوريا والدراسة بالمعهد مسائية

وسيعقد لهم امتحان القبول فى اللغة العربية وتاريخ مصر وفى اللغتين الانجليزية والفرنسية وذلك فى يوم الاثنين الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٢ فى تمام الساعة الرابعة بعد الظهر بالمبنى الرئيسى بكلية الآداب بالجيزة

فعلى من يرغب من الطلبة الالتحاق بالمعهد التقدم بأوراق التحاقهم لإدارة المعهد الكائنة بمبنى مكتبة جامعة فؤاد الأول ٢٦٨٦